قالت نفيسة: افترق جسماهما والتقى روحاهما! هذا كلام لا أفهمه ولا أصدقه، ولو كان حقًّا لما رأيت أبي في الليلة الأولى لوفاة أمي وهو يلقي إلي من بعيد هذا الأمر: قولي لهم يدفنوها معي فإني إليها مشوق، وقد وعدتها بذلك قبل أن أموت؛ ولو كان هذا حقًّا لما رأيت أمي في الليلة الثانية تلقي إليَّ هذا الأمر من بعيد: قولي لهم يدفنوني معه فإني مشوقة إليه، وقد وعدني بذلك قبل أن يموت، أترين لو أن روحيهما التقيا أكانا يطلبان إليَّ هذا الذي تواعدا عليه قبل أن يموتا؟!

قالت زبيدة: وقد أخذ شيء من الخوف الخفي يتسرب إلى قلبها فتسري له في جسمها كله رعدة خفيفة — قالت زبيدة: أفتصدقين الأحلام وتكذبين مقالة الشيخ؟! إن الأحلام كثيرًا ما تَكْذِبُنا، ولكن الشيخ لا يقول إلا الحق.

قالت نفيسة: أما إني لا أدري أيهما يلم بي الليلة إذا غفوت فيُلقي إلي هذا الأمر الذي لا أستطيع له تنفيذًا، فكيف لي بنقل أمي إلى القاهرة وأنا لا أقدر على شيء! وكيف لي بالتحدث إليه أو إلى أبيه في شيء من ذلك وقد فعلا أكثر مما كان ينبغي أن يفعلا. قالت زبيدة: إليه! إلى من؟ قالت نفيسة: إليه! إنك لتعرفينه. ففطنت زبيدة إلى أنها إنما تشير إلى خالد، وكانت لا تسميه إذا تحدثت عنه، وإنما تشير إليه دائمًا بالضمير. قالت زبيدة: قد فهمت، سأتحدث إليه وإلى أبيه وإلى سليم.

واستأنفت المعددة غناءها الذي كان يمزق القلوب، واستأنف المأتم الرد عليها والبكاء معها، وانهلت الدموع غزارًا، واضطربت الأصوات في الحلوق، وألمت النوبات العصبية ببعض النائحات فأسرع إليهن سائر نساء المأتم، يهدئنهن بالقول والعمل، وينضحن على وجوههن الماء. وانصرفت زبيدة من ذلك اليوم وهي تُشفق على نفيسة من خطر جديد، وتزمع أن تتحدث إلى زوجها في نقل هذه المتوفاة إلى القاهرة، ولست أدري أتحدثت في ذلك أم لم تجد إلى الحديث فيه سبيلًا، ولكن الشيء المحقق هو أن الليل جعل يُخيف نفيسة أشد الخوف كلما مالت الشمس إلى الغروب، وكان هذا الخوف يزداد قوة وعنفًا كلما تقدم الليل، وكان أبغض شيء إلى نفيسة أن تأوي إلى مضجعها مخافة أن يزورها النوم، فيزورها معه طيف هذا أو تلك من أبويها، فكانت تدافع النومَ بالقهوة تُسرف في شربها إذا أظلم الليل، لا تكاد تفرغ من كأس حتى تعمد إلى كأس أخرى، ثم أشفقت من العزلة التي كان الليل يضطرها إليها إذا هدأ من حولها كل شيء ونام من حولها كل إنسان، فكانت تستبقي ابنتيها معها حتى يتقدم الليل، فإذا عبث النعاس بالصبيتين ووضع رأس كل واحدة منهما على إحدى فخذيها، أدركها شيء من الجزع